القدس العربي
AL-QUDS AL-ARABI

في رحيل الفنان التشكيلي محمد شبعة: بصمات لونية متعددة المعاني

ابراهيم الحَيْسن

Aug 02, 2013

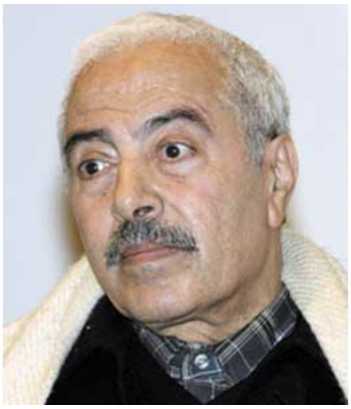

د معاناة مع مرض عضال لم ينفع معه علاج، وعن سن تناهز 78 سنة رحل عنا إلى داء البقاء الفنان التشكيلي المغربي محمد شبعة، وذلك خلال ساعات الأولى من يوم الأربعاء 24 يوليوز 2013 بمدينة الدار البيضاء تاركاً وراءه سجلاً حافلاً بالعطاء والإنتاج التشكيلي تنظيراً وممارسة، إلى انب تجربته البيداغوجية الكبيرة ودفاعه عن الدرس الجمالي والتراثي ضمن منظور تربوي شمولي أسسه على خيارات تحديثية تروم دمج الفن في حياة اليومية.

ظي الفنان شبعة بتكريم من طرف اتحاد كتاب المغرب وقت كان الشاعر حسن نجمي رئيسا له، وأصدر بالمناسبة كتابا مونوغرافيا يؤرخ لتجربته جمالية موسوما بـ'الوعي البصري بالمغرب كتاب مونوغرافي'- يوليوز 2001، كما عاش تجربة الحبس بسبب نضاله داخل صفوف اليسار المغربي، يث قضى فترات من الاعتقال ضمن نشطاء حركة أقصى اليسار سن 1972. سبق له إدارة المعهد الوطني العالي للفنون الجميلة بتطوان خلال سعينيات القرن الماضي. في ما يأتي ورقة حول مسار الفقيد:

ل الأب بيرتوتشي:

ين حط الفنان محمد شبعة الرحال بتطوان وعمره لا يتجاوز عشرين عاما، قادما إليها من طنجة، مسقط رأسه، طالبا ممتلئا بالحيوية والحماس، كان حمل في ذهنه مشروعا جماليا لم تتضح أبعاده الحقيقية سوى بعد ولوجه مدرسة الفنون الجميلة في بحر الخمسينات والتتلمذ على يد الأستاذ ماريانو يتوتشيDon M. Bertuchi الذي أرسى دعائم الفن التشخيصي والتصوير الزيتي بشمال المغرب..

ناك، ومنذ ذلك الوقت، سيتجاوز محمد شبعة تقنية الألوان المائية التي كان يمارسها بسهولة وسينفتح على مواد وأسناد تعبيرية أخرى كالطين والجبس ا نحا نحوهما.. كما سيكتسب - رفقة مجموعة من زملائه الفنانين وفي طليعتهم رفيق الدرب محمد المليحي- الكثير من المفاهيم البيداغوجية والتقنيات كاديمية المتنوعة التي سيتم تفجيرها لاحقا، خصوصا بعد التوجه إلى روما وأمريكا التي أعجب الفنان محمد شبعة بفنونها المعاصرة، لاسيما تجربة فنانين جاكسون بوللوك وفرانز كلاين..فـ 'بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة بتطوان، على الرغم من عيوب برنامجها، أتيحت لنا الفرصة لتعلم أشياء ساسية ما كنا لنتعلمها لولا هذه المدرسة، بل إن الثورة على ذلك لم تكن ممكنة إلا بما تعلمناه' - الكلام للفنان شبعة..مضيفاً: 'غير أنني لم أبدأ صياغة مواقف وإنجاز أعمال ضد ما كنت تعلمته بالمدرسة إلا بعد انصرافي منها، إذ لم يكن من المعقول يومئذ أن أنصرف للدراسة والتحصيل، وأنتقد ك أيضا بصدق !!'..

م يكن الموقف سهلا أن يعلن التلميذ ثورته على الأستاذ وتجاوز دروس بيرتوتشي الأب الذي كان من الضروري قتله - رمزيا- لخلخلة الفهم الجامد التي اد التصوير المعاصر بالمغرب وإعادة صياغته على قاعدة جديدة تنطلق من إحياء الفنون الشعبية الوطنية التي رسخت حضورا عضويا عميقا في ترية المغربية الخصبة التي تمتد جذورها إلى التراث العربي الإسلامي والإفريقي..

ان ذلك بمثابة المنطلق الرئيسي لتشكيل وعي الفنان المغربي ورسم اختياراته في مناخ مضطرب شهد نقاشا إيديولوجيا حادا ظل يرفض في العمق شويه وتمييع الوجدان الجمالي المغربي عبر احتضان مشبوه وتشجيع غير بريء لرسامين عصاميين، غير مسلحين بالمعرفة النظرية الكافية. فقد كان إما تأهيل الفنان المغربي تأهيلا مزدوجا يأخذ بعين الاعتبار امتلاك ناصية الصنعة (العمل الفني)، وفي نفس الوقت التزود بالثقافة اللازمة التي تؤسس قعد للممارسة العملية.

كان الفنان محمد شبعة محقا بانتباهه الدقيق وتصديه - إبداعيا- لكل تحقير برَّاني أو وصاية أجنبية على التفكير التشكيلي والوعي البصري الوطني حبسهما في مجرَّد إنتاج رسم فطري فولكلوري اعتبر ساذجا Na'f ويقوم على الغرابة والتخلف..

ما كان السياق التاريخي والسياسي وقتئذ مشتعلا صعبا ومركبا ومليئا بالصراع الإيديولوجي، ولم يكن من السهل كسب الرهان وسط هذا الغليان

إنقاذ جيل (أو أجيال) مرتبك من الرسامين والمصورين وتأطيرهم ثقافيا وإبداعيا لتجاوز الإعاقة التي أحدثتها العقلية والسياسة الكولونيالية في الجسم
لإبداعي المغربي، وبالتالي الانخراط بروح وطنية في بناء مغرب بداية الاستقلال..
هذا التفكير السامي، وبهذا الوعي الجمالي الصاحي، بذل الفنان محمد شبعة جهدا كبيرا لكي ينتصر لمواقفه الإبداعية المعاصرة، تمثل أساسا في
بادته لحملة وطنية توعوية، إلى جانب بعض زملائه الفنانين، والذي ظل يروم من ورائها وضع تجربة وقيمة برتوتشي في سياقها التاريخي (أو الميزان
لتعبير الشعبي المغربي)، وبالتالي إعادة الاعتبار للموروث التراثي والجمالي الوطني ومنه النقوش والزخارف الشعبية والمنسوجات والجبس والفسيفساء
لمطروزات والزليج والمشربيات Moucharabiehs ..ومختلف الصنائع والمشغولات اليدوية التي ينتجها الحرفيون التقليديون..
ذا الجهد، الذي وجد أرضية خصبة عكستها أجواء الأفكار السياسية والإيديولوجية التي كانت تملأ مساحات واسعة من انشغالات المثقفين والمفكرين
مغاربة التقدميين، تجسد كثيرا في البحث الصباغي والنحت وإدماج الفن التشكيلي في البناء المعماري والانفتاح على ثقافة وفنون القرى والأرياف،
فضلا عن الكتابات التنظيرية للحداثة الفنية (باللغتين العربية والفرنسية)، وقد نَشر الكثير منها بعدة منابر ثقافية وإعلامية وطنية وعربية: الثقافة الجديدة،
اروك آرت، أنتغرال، الإشارة، فنون، رواق..ثم مجلة مجلة 'أنفاس' Souffles (ذات التوجه اليساري) التي كان يديرها الشاعر عبد اللطيف اللعبي ومن
عضائها الطاهر بنجلون ومصطفى النيسابوري وعبد الكبير الخطيبي، وكلهم يكتبون باللغة الفرنسية. وقد خصصت هذه المجلة عددا مزدوجا (7 و8
شت 1967) للفنون التشكيلية بالمغرب رصدت من خلاله حصيلة أكثر من عشرين سنة من الإنتاج الجمالي بالمغرب.
لا شك أن الأفكار والأسئلة البصرية والقضايا الجمالية التي أثيرت في ذلك الوقت – والتي كان الفنان محمد شبعة من أكبر المدافعين عنها– كان لها
لأثر الإيجابي في إغناء التجربة التشكيلية وإنضاجها بالمغرب وتخليصها من أية عملية إنتاجية تمليها رغبات سياح عابرين (فن الكليشيهات/ الكارت
يسطال مثلا)، أو تنسجم مع مواقفهم الساخرة..

ن تطوان..إلى روما..

ي عام 1955، سيحصل الفنان التشكيلي محمد شبعة على دبلوم استكمال الدروس من مدرسة الفنون الجميلة بتطوان ليتجه إلى روما بعدما استفاد
ن منحة لمتابعة التكوين بأكاديمية الفنون الجميلة بالعاصمة الإيطالية..
ن هناك كانت البداية الحقيقية لانفتاحه الجمالي المباشر على مختلف التعبيرات الحداثية التي تميز بها الفن التشكيلي الأوروبي في ذلك الوقت. هذا
لانفتاح بدا جليا في مجمل القماشات والورقيات التي نفذها الفنان شبعة على إيقاع صباغة حركية غنائية تعتمد السواد كقوة تعبيرية لتبرير
بياض..بياض اللون وبياض السند..
يس في الأمر مفاضلة طيفية ما ؟ ربما..أعتقد..ذلك أن 'الألوان المتباينة إذا جمعت في المنظر تكون أحسن من الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأسود ' ما يقول إبن سنان الخفاجي في سِرِّ الفصاحة/1969..
قد أدى إعجاب الفنان محمد شبعة بالفن الأمريكي المعاصر/الذي تسرب آنذاك إلى إيطاليا وبخاصة أعمال الفنانين فرانز كلاينF. Kline وجاكسون
للوك J. Pollock بكل خصائصها الجمالية التي تتجذر في تربة الفن البصري ' الأوب آرت ' والفن الحركي َAction painting/ إلى إنجاز
جموعة من الأعمال الصباغية بألوان شبه أحادية ، أو اعتماد أسلوب اللونية الواحدة، أبرزها الأحمر الطابوقي، المعروف أيضا بالأحمر المعدني
لآجوري، على الأبيض..
قب ذلك، سيعود الفنان محمد شبعة إلى بلاده المغرب مزوَّداً بتكوين فني أكاديمي منحه رصيدا جماليا غنيا سيمكنه من فهم وفك أسرار الصباغة
حديثة فهما جيدا وإنجاز مجموعة من اللوحات والجداريات والتصاميم المعمارية الحديثة المبنية على الدقة والانضباط، والمؤسسة وفق أساليب هندسية
صرية تعكس طبيعة التفكير العقلاني الذي تميز به إنسانا وفنانا..إلى جانب استعمال الألوان الصارخة والمتقدة التي كانت تبدو في قطعه الفنية
سافية وهادئة استنادا إلى الاستنتاج الذي توصلت إليه الناقدة طوني ماريني، مثلما كانت تمتد لثقافته المتقدمة وتعكس فلسفته الجمالية الواسعة التي
ان يجسدها فوق السند بخبرة عالية ومتطورة..فكل هذه المنجزات أمست تجسد شعاره الإبداعي: 'الصباغة رفض للعاطفة..ونظافة للعين'..
بعد فترة طويلة دامت زهاء عقدين من الوقت اتسمت بالصمت والتأمل ومراجعة التجربة ظلت خلالها 'الصباغة تشتغل في الرأس' (التعبير للفنان
بعة)، سيطالعنا هذا الأخير– مع بداية الثمانينات– بتجربة صباغية جديدة أطلق عليها 'بلاغة الشفافية والنور'، وهي سلسلة أعمال صباغية (أكريليك
لى القماش والورق) بدت مفعمة بالكثير من العلامات والرموز الراقصة والمتطايرة في الهواء وكأنها أشكال هندسية مذوبة صارت خفيفة ومتشذرة بعد أن
خلصت من بناءاتها الرياضية المتماسكة، هي بمثابة التوق نحو الحرية والانعتاق والتحليق في سماء المطلق واللامحدود..
ها بلا شك مغامرة جمالية جديدة..أو نور على نور وشعر من شفافية نورانية، حيث قام الفنان شبعة بتصوير الشفوف وكتابة النور. من ثم ينبثق سمك–
وء تصويري في مقابل عدمية سمك المادة.عمق الدقة، حيث الدقة سميكة، والسمك مصطنع. فضاء بصري، إذ ' يسافر' النظر عبر جو صوفي، تأملي.
سوفية الشكل–اللون، حكمة إلهية– شعرية الصورة، الصورة باعتبارها مكانا للتلاقي ومقاما لمتعة التصوير..
لا شك أن لهذا التحول الجمالي في تجربة الفنان محمد شبعة ما يبرره ثقافيا وإبداعيا، إذ حلت المرونة مكان الصرامة..والشفوف مكان الغوامق. يقول
فنان شبعة مبررا ومعللا: ' إن صباغتي لسنوات الثمانين كانت فضائية ومهواة بالأكسجين، هوائية وطائرة سجلت قطيعتي مع الإيديولوجيا كاشتراط
صباغة الإبداع. إن التصميمية الصارمة التي ميزت أعمالي السابقة، قد أخلت الطريق لصباغة ' تتنفس' فطرة وشبابا مسترجعين. هذه الصباغة
رجت في المكان والزمان من 1983 إلى 1993..لم أكن أدرك آنذاك أنني كنت أؤسس لاتجاه ما بعد حداثي '..
ن ثم، سيغدو التعبير التشكيلي عند الفنان محمد شبعة أكثر قوة وتحرُّرا، إذ سيقدم في معرض تشكيلي تاريخي أقامه خلال شتنبر 2004 برواق باب
رواح بالرباط مجموعة من اللوحات والمنحوتات التي تجسد انخراطه الجمالي في إبداع تشكيلي جديد بلغ حده الحداثي بالشكل الذي ظل ينظر–من
تنظير– له منذ سنوات طويلة وإلى الآن..

ماشات مطبوعة بقوة اللمسة..

ا يثير الانتباه في القماشات الصباغية الأخيرة التي أبدعها الفنان محمد شبعة قبل رحيله، هو تلك اللمسات الفنية وضربات الفرشاة العريضة الواثقة تي تطفو على السطح معلنة عن حضور بصمات لونية متعددة المعاني والتجليات، لذلك تظل هذه اللمسات تتحرك داخل فضاء اللوحة..وتطرح أكثر من ؤال بصري لمعالجة المساحة وفهم التكوين..

لمسة، كما كان يوقعها الفنان شبعة داخل نسق صباغي متفرد، شعاع ضوء في ظلام دامس..وانغماس الذات في أشيائها، أو هي بعبارة أصح: تزاج الخبرة باللحظة الإبداعية..

سة/لمسات ممتدة شبه كاليغرافية مدورة تميل إلى التكور والاستدارة..ومفتوحة على ما يكملها لتصير دوائر متعاضدة ومتكومة حول نفسها..

اء اللوحة عنده تقرّره أشكال متحرّكة تمثل شرائط عريضة منقوشة قائمة على التضاد والتنويع: تتعدد..تنثني وتأخذ هيئات متشابكة مستمدة من رجعيات بصرية كثيرة قد تشكل في تاريخها الجمالي المتواصل امتدادا لبناء سابق يقوم على دلالات تجريدية من الممكن متابعتها داخل حدوس الفن شعبي: تقسيمات هندسية متمايزة الشكل واللون، تركيبات زخرفية مستعارة..إلخ..

هذا التحوّل الإبداعي يظل طبيعيا في تجربة الفنان محمد شبعة اعتبارا لتعدد أسئلته الجمالية وسفره الدائم واللامحدود في عوالم الثقافة والفكر لإبداع.. لذلك يظل الحضور البليغ والمتواشج للمسة العريضة يبرز حركة التحوّلات الأسلوبية التي تميز طريقة اشتغاله في علاقته بالمساحات لفراغات. فبلجوئه إلى التلاعب بالتضادات Contrastes كسر الفنان كثافة اللمسات بتوظيف ألوان متباينة تكثر فيها الغوامق والشفوف..

ي أعمال صباغية تجمع بين نزوع جمالي وتعبيري في آن..وقائمة في إنشائها على تخطيط لوني مدروس شفاف أحيانا..حاجب أحيانا أخرى..لكنه ظل في الحالتين معا مشحونا بقوة التعبير وبحرارة اللون في اشتعالاته المنطفئة..وانطفاءاته المشتعلة..

ماشات الفنان محمد شبعة، القديم منها والجديد، تتطلب أكثر من سبيل ملكي Voie royale للعبور إلى عالمها الداخلي المليء بحبور لوني متدفق يمض خلف الأشياء المصبوغة ويرسم انخراط الفنان المبكر في صباغة ما بعد حداثية عاكسة لفهمه واستيعابه الجيد لمرحلته..

الم الفنان هو اللوحة..واللوحة هي عالم الفنان..ولفهم الخلفية الجمالية لهذا العالم، ينبغي استشفاف الرُّوح الداخلية لعناصر البناء ومفردات التكوين: لمسة واللون والعلاقات البصرية القائمة بينها..

مثلما برز ملونا Coloriste ومنظرا في الفن، فقد تميز التشكيلي محمد شبعة نحاتا بارعا أيضا، حيث تشهد على ذلك العديد من القطع النحتية التي دعها على مواد وسنائد متنوعة وعالج بواسطتها الكثير من القضايا والأسئلة الفكرية والبصرية ذات الأبعاد الإنسانية..

ثيرة هي اللقاءات التي جمعتني بالراحل السي محمد شبعة كلها بالرباط، حيث جالسته مرة في أحدها بحي أكَدال زهاء ثلاث ساعات كلها حديث عن حلته الطويلة مع اللوحة والكتابة، إلى جانب استضافتي له قبل عقد ونصف في برنامج 'لقاء في الثقافة والإبداع' (30 د.، بالهاتف) الذي كنت أنشطه إذاعة العيون الجهوية، وكان موضوع الحلقة 'البعد الجمالي في المشغولات اليدوية البصحراوية' على اعتبار أنه قضى فترة مهمة مكلفا بمشروع متصل نطاع الصناعة التقليدية في مدينة العيون والصحراء عموما.

هذا الرحيل المفاجئ، تكون الساحة التشكيلية المغربية والعربية قد فقدت واحداً من أبرز أقطابها مبدعاً خلاَّقاً..ومنظراً في الفن، وقبل ذلك إنساناً ودودا يض بالكثير من النبل ودماثة الخلق.

و هكذا الموت، الأجل المحتوم، غيَّب عنا واحدا من المبدعين الذين نحبُّهم في فنهم وإنسانيتهم..

حل عنا وأوغل في الرحيل..

..لا فنحن لن ننساه أبداً، وسيظل -بالتأكيد- حاضرا معنا في الإبداع والحياة..

حم الله أخانا الأستاذ السي محمد شبعة وأسكنه فسيح جناته وألهم ذويه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

Like 72

© صحيفة القدس العربي